

القرية فى صعيد مصر فى مواجهة الغزو الفرنسى

١٧٩٨-١٨٠٠

الأستاذ الدكتور/ على بركات
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة حلوان

فى البداية لابد من الإشارة إلى أن هذه الورقة لا تتعرض لكل معارك الحملة الفرنسية فى صعيد مصر ، وبالتالى فهى ليست دراسة للتاريخ العسكرى للحملة الفرنسية فى الصعيد فهذا الموضوع تعرض له المؤرخ عبدالرحمن الرافعى باستفاضة فى الجزء الأول من كتابه تاريخ الحركة القومية (١) . وإنما هذه الورقة محاولة لرصد بعض جوانب المواجهة التى تمت بين القرية وحملة ديزيه فى محاولتها تأسيس سلطة فرنسية فى صعيد مصر بالتالى فالقضية هنا أوسع من محاولة رصد للمعارك العسكرية . وفيما يتعلق بتناول المعارك العسكرية فقد حاولت أن تكون قاصرة على المعارك التى خاضتها القرية منفردة دون المماليك أو من عناصر البدو ، كما هو الحال فى المعركة التى خاضتها قرية الغنايم ضد الفرنسيين كذلك المعارك التى كان الفلاحون الطرف الرئيسى فيها . هذه ملاحظة أولى أما الملاحظة الأخرى فتتعلق بالمصادر وفى هذا المجال يمكن رصد ثلاث صعوبات :

١- إن المصادر الفرنسية وهى أساسية فى الموضوع ومتعددة . هذه المصادر منحازة وبالضرورة للجانب الفرنسى ، كما أنها تعاني من سوء الفهم للثقافة والمعتقدات والقيم السائدة بين السكان وقد انعكس ذلك على طبيعة الصراع . يمكن ملاحظة ذلك من تعليق " فيفان دينون " على ما أسميته هنا سياسة الأرض المحروقة التى اتبعها الفلاحون وسكان القرى فى مواجهة قوات الغزو . حين كان الفلاحون يرحلون عن القرى قبل أن يهاجمها الفرنسيون ويجردون القرى من كل ما يمكن أن يستفيد منه الفرنسيون . " دينون " يقول تعليقا على ذلك ماذا لو بقى الفلاحون فى قراهم ليشاركهم الفرنسيون فى غنائمهم .. وفى هذه الحالة سوف يغتصب من نسائهم عدد أقل ، ويتضح ذلك أيضا من تعليق " ديزيه " على واقعة الغلام الذى تسلم إلى معسكرات الجيش الفرنسى قرب المنيا وتم أسره وعندما

Copyright © 2011

(١) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ .

سأله " ديزيه " عن الذين حرضوه قال إن الله أمره بذلك وأمره بقتال الفرنسيين . وكان تعجب القائد الفرنسي من تلك المبادئ والعقيدة التي تجعل ذلك الغلام يضحي بنفسه دون تردد (١) .

٢- أن " الجبرتي " المؤرخ المصري الذي عاصر أحداث الحملة لم يهتم كثيرا بوقائع حملة " ديزيه " على الصعيد ويرجع ذلك إلى أنه كان عازفا بشكل عام عن متابعة أخبار الريف . كما أنه كان ينظر للطبقات الدنيا في الريف والمدينة باستعلاء شديد . يمكن ملاحظة ذلك فيما كتبه من أخبار وتعليقات على الطبقات الدنيا في المدينة وعن الفلاحين في الريف (٢) .

٣- أنه في إطار التاريخ الشفهي أو التاريخ غير المكتوب للقرية لا تحتفظ ذاكرة القرية بأية ذكريات عن تلك المقاومة العنيفة التي خاضتها القرية ضد الفرنسيين في الصعيد بينما احتفظت بعض القرى بذكرات وأغاني ومواويل عن أحداث أقل أهمية يرجع بعضها إلى أوائل عصر محمد علي وأوائل عصر عباس ومنها الصراع الذي كان قائما بين بعض القرى والذي أشار " علي مبارك " إلى بعض جوانبه في حديثه عن قرية بنجا (٣) . وربما يرجع ذلك إلى محاولات الفرنسيين الاعتداء على الأعراس عند مهاجمتهم للقرى وبالتالي استقطت القرية من ذاكرتها تلك الصفحة من نضالها ضد الغزاة الفرنسيين .

بعد هذه المقدمة يمكن أن نعرض للواقع الاقتصادي والاجتماعي للقرية وموقفها من السلطة في صعيد مصر . وسوف يساعد ذلك على تفسير عنف المقاومة ضد الفرنسيين في ريف مصر عموما . وفي الصعيد على وجه خاص .

(١) "فيغان دينون" أحد علماء الحملة الفرنسية الذين صاحبوا حملة "ديزيه" على صعيد مصر وصور المعابد المصرية هناك كما سجل معارك الحملة التي شاهدها في صعيد مصر في كتاب ترجم إلى الإنجليزية :

Denon , V. , Travels in Upper and lower Egypt , New-York 19 , V.I, PP. 360 - 365 .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، طبعة بولاق سنة ١٢٩٧هـ . ج ٣ ، ص ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ٢٥ وأيضا ج ٤ ، ص ٢٠٨ .

(٣) علي مبارك ، الخطط التوفيقية للجريدة ، القاهرة مطبعة بولاق سنة ١٣٠٥هـ ، ج ٩ ، ص ٨٤ .

الواقع الاقتصادى والاجتماعى للقرية قبيل الغزو الفرنسى :

خلال العصر العثمانى كانت الضرائب هى الوسيلة الرئيسية للحصول على الفائض فى القطاع الزراعى . كما كانت السخرة تمثل وسيلة أخرى للحصول على الفائض ، وكان نظام حيازة الأرض خلال تلك الفترة يسمح لفئات بعينها بالحصول على الجزء الأكبر من الفائض فى شكل ضرائب عينية ونقدية . وبذلك شاركت تلك الفئات الدولة فى الحصول على الفائض بل أصبح ما تحصل عليه هذه الفئات من الفائض يزيد فى بعض الأحيان عما تحصل عليه السلطات المركزية صاحبة الحق فى هذه الضرائب (١) .

فى البداية اتبع العثمانيون نظام الجباية المباشرة للضرائب فى الأرض الزراعية عن طريق تطبيق ما عرف بنظام الأمانات أو المقاطعات . وهو نظام كان يقوم على تجميع عدد من القرى فى مقاطعة واحدة تمثل وحدة إدارية يعين عليها مسئول لجباية الضرائب وكان يساعده فى ذلك موظف للإشراف على الأراضى وتحديد الضرائب . ثم أخذت الدولة تتخلى عن هذا النظام ابتداء من النصف الثانى للقرن السابع عشر بنظام بديل هو نظام الالتزام الذى كان تطورا للنظام السابق . وكان ظهور نظام الالتزام تعبيرا عن ضعف السلطة العثمانية حيث يقوم النظام الجديد على اعطاء حق جباية الضرائب لبعض الأفراد الأقوياء من المماليك ورجال الحامية ومشايخ العرب وفى فترة لاحقة إلى كبار التجار وكذلك العلماء . وبذلك شاركت هذه الفئات الدولة فى الحصول على الفائض (٢) . وأصبحت هذه الفئات تلعب دور الوسيط فى تحصيل الضرائب بين الفلاحين والسلطات العثمانية . وفى البداية كان الالتزام يمنح كامتياز لسنة قابلة للتجديد أصبح يمنح لعدة سنوات . ومع استمرار التدهور فى اوضاع السلطة العثمانية أصبح الالتزام يورث ويباع ويمكن التنازل عنه للغير .

(١) حول الضرائب الإضافية فى القرية خلال تلك الفترة انظر :

- دار الوثائق ، دفتر ترابييع ولاية الشرقية سنة ١٢١٥هـ رقم ١٦٠٨ .

(٢) Shaw , S., Land Holding and land tax Reveues in Ottuman Egypt , in Holt , Political and Social change in Egypt , London , 1968 , PP. 94 - 96 .

وابتداء من ١٨٣٠ أنشأت الإدارة المالية (الرزنامة) دفاتر أطلق عليها اسم دفاتر اسقاط القرى بعد أن أصبحت الدولة تعترف من الناحية الواقعية بما انتهى إليه نظام الالتزام على الرغم من أن الدولة من الناحية القانونية كانت لا تزال تملك رقبة الأرض (١) .

وقد ضاعف من قسوة الحياة على الفلاحين خلال تلك الفترة ان الملتزمين وقد حلوا محل الحكومة في الريف وانتقلت اليهم سلطاتها الادارية بعد أن تطور نظام الالتزام من نظام مالى إلى نظام مالى وإدارى وبذلك انفتح الباب على مصراعيه لظلم الفلاحين واستنزافهم لدرجة قرر معها " الجبرتى " أن الفلاح أصبح مع الملتزم أدل من العبد المشتري (٢) .

وقد زيدت الضرائب خلال العصر العثمانى عدة مرات على الأرض الزراعية ومع مرور الوقت أصبح النظام الضريبي في مصر العثمانية بعيدا عن العدالة . فمن ناحية لم تشهد فترة الحكم العثمانى عملية مسح للأرض الزراعية أو إعادة تقييم للضرائب على الرغم من التغيير الذى طرأ على مساحة الأرض الزراعية أو على خصوبتها على الرغم من تلك الجهود التى كان يبذلها بعض الملتزمين أو الإدارة المحلية لتحقيق قدر من العدل فى هذا الاتجاه . ففى البداية كان الخراج والمال الحر متقاربين حيث كانت كل الاراضى المزروعة خاضعة للضرائب تقريبا . كان الجزء الأكبر من الضرائب المحصلة من الأرض الزراعية يذهب إلى الخزانة . ولم يكن هناك سوى قدر ضئيل يذهب للإتفاق على الإدارة المحلية ، لكن المتحصل من الضرائب أصبح يقل تدريجيا . وكان العامل الرئيسى فى هذا النقص هو التدهور الشديد فى قيمة العملة فى مصر ، ونتيجة لتدهور قيمة العملة وما صاحب ذلك من تضخم فى الأسعار ازدادت الضرائب على الأرض وأصبحت قيمة المال المضاف تبلغ ٥٠٠٠ بارة عن كل ٢٥,٠٠٠ بارة من المال القديم كما أصبح متوسط الضريبة على القدان يصل إلى ٧ بارات فى نهاية القرن الثامن عشر . بينما ارتفع دخل الدولة من الضرائب على الأرض الزراعية من ٤٤,٤٧٨,٣١٢ عام ١٥٩٦م إلى ٧٥,٢١٢,٣٨٩ بارة عام ١٧٩٨م بزيادة قدرها ٦٠% وهى زيادة قد تبدو عادلة بالقياس الى التدهور الذى حدث فى قيمة العملة . لكن الحقيقة أن المال الحر (مجموع الضرائب التى تحصل عن الأرض الزراعية) قد زاد من ٥٠ مليون بارة تقريبا مع نهاية القرن السادس عشر إلى ٤١١,٨٠٠,٠٢٥ بارة فى نهاية القرن

(١) بيتر جران ، الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر ١٧٦٠ - ١٨٤٠ ، ترجمة محروس سليمان ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٩٣ ، مج ٨٠ .

(٢) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ .

الثامن عشر أى بزيادة تصل إلى ٨٠٠٪ كان يذهب منها ٢١٪ فقط إلى الخزانة و ١٢٪ إلى الإدارة المحلية والباقي وتبلغ نسبته ٦٧٪ فيذهب إلى الملتزمين وعملاتهم فى الريف (١) .

ومع نهاية القرن الثامن عشر كان عدد الملتزمين يصل إلى ٦٠٠٠ ملتزم من بينهم ٣٠٠ ملتزم من المماليك يحوزون أكثر من ثلثى الأراضى الزراعية فى مصر . وإلى جانب الأسباب الاقتصادية المشار إليها يمكن إضافة أسباب أخرى كانت وراء الأعباء والمطالب المالية المتزايدة التى عانى منها الفلاحون فى نهاية القرن الثامن عشر وهذه نحصيلها على النحو التالى :

١- تطور أطماع المماليك السياسية وزيادة تطلّعهم إلى السلطة ابتداء من حركة على بك الكبير وتوسع المماليك فى تجنيد المرتزقة للاستعانة بهم فى تحقيق تطلّعهم وكان هؤلاء المرتزقة يحصلون على أجور عالية . كذلك توسع المماليك فى استخدام الأسلحة الحديثة وهى غالية الثمن بالقياس إلى الأسلحة التقليدية التى كان يستعملها المماليك من قبل . وكان اعتماد المماليك فى تسليحهم فى ذلك الوقت على الفرنسيين مكلفا للغاية . وكان ذلك أحد أسباب الضغوط الاقتصادية الرئيسية التى دفعت المماليك للأخذ بأساليب قصيرة الأجل لزيادة أموالهم عن طريق فرض الضرائب الباهظة على القرى والتجار وجماعات المدن . وهذه الأساليب مارسها على بك الكبير . كما حاول مراد بك استخدام أساليب قصيرة الأجل أيضا عن طريق استخدام القوة فى جمع أكبر جزء من محصول القمح وبيعه نقدا بسعر مرتفع (٢) .

٢- الترف الذى عاشه المماليك كطبقة عسكرية (شبه إقطاعية) وهو ترف تحدثت عنه المصادر سواء فى أسلحتهم الشخصية أو قصورهم أو حفلاتهم . فقد صور الجبرتى مظاهر البذخ التى صاحبت زواج عديلة هانم ابنة ابراهيم بك عام ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) والعربة الفرنسية التى استقلتها إلى بيت أبيها (٣) .

Shaw , op - cit , PP. 97 , 98 ;

(١)

هبلين ريفلين ، الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٤٠ .

(٢) محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ - ١٩١٤) ، مكتبة سعيد رافت ، القاهرة - ١٩٧٧ ، ص ١٥٩ - أيضا بيتر جران ، الجنود الإسلامية للرأسمالية فى مصر ١٧٦٠ + ١٨٤٠ ، ترجمة محروس سليمان ، القاهرة دار الفكر سنة ١٩٩٣ ، ص ٤٥ ، ٤٧ .

(٣) بيتر جران ، المرجع السابق ، ص ٤٧ - عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

٣- تدهور تجارة البن ابتداء من عام ١٧٢٥ وكان البن اليمنى قد أصبح السلعة الرئيسية فى تجارة البحر الأحمر وأصبحت له الصدارة فى تجارة مصر الخارجية فى نهاية القرن السابع عشر ثم ما لبث أن تعرض للمنافسة من قبل البن المنتج فى المستعمرات الفرنسية فى أمريكا الوسطى . وقد أضاف تدهور تجارة البن عاملا جديدا فى ضعف موارد البلاد المالية فى الوقت الذى زادت فيه المطالب المالية للطبقات الحاكمة (١) .

٤- التدهور المستمر فى قيمة العملة العثمانية التى تحدد وزنها فى القرن السادس عشر بمقدار ١,٢٨ من الجرام وكانت نسبة الفضة بها ١٠٠٪ ، هذه القيمة ما لبث أن انخفض وزنها إلى ٦٨,٩٪ من الجرام كما انخفضت نسبة الفضة بها إلى ٧٠٪ فى نهاية القرن السابع عشر . وفى عام ١٧٩٨ أصبح وزنها ٢٢,٥٪ من الجرام كما انخفضت نسبة الفضة بها إلى ٣٠٪ . أما العملة الذهبية المعروفة بالسكوكين فقد كان وزنها يبلغ ٣,٤٤٨ جرام وكانت نسبة الذهب بها تصل إلى ٩٩,٦٪ ما لبث أن انخفض وزنها إلى ٢,٥٩٢ جم فى نهاية القرن الثامن عشر كما انخفضت نسبة الذهب بها إلى ٦٩,٦٪ . أما الفندقى وهى عملة ذهبية كان وزنها ٣,٥١٠ جم عام ١٧٠٣ وكانت نسبة الذهب بها تصل إلى ٩٦,٨٪ وفى نهاية القرن الثامن عشر أصبح وزنها يصل إلى ٣,٤٤٨ جم كما انخفضت نسبة الذهب بها إلى ٧٥٪ (٢) .

٥- أما العامل الأخير فى هذا السياق فهو اتساع مساحة الأراضى الزراعية المعفاة من الضرائب من الأوقاف والوسية وهى الأرض التى كانت فى حيازة الملتزمين فضلا عن مسموح العلماء ومسموح البدو . وكان ذلك يعنى تزايد الضرائب على أراضى الفلاحة وهى الأراضى التى كان يزرعها الفلاحون (٣) .

إن تدهور تجارة العبور والتضخم فى الأسعار واتساع مساحة الأراضى المعفاة من الضرائب قد أرقق القطاعات المنتجة فى الريف والمدينة . وكان هذا الإرهاق أكثر وضوحا

(١) Raymond , Artisans et commercant au caire 18 Siecle Darnasous ,1973 ,T.LPP.412 - 414

(٢) Shaw , op - cit P. 97 .

(٣) على بركات ، تطور الملكية الزراعية فى مصر وأثره على الحركة السياسية ١٨١٣ - ١٩١٤ القاهرة ١٩٧٧ ، دار الثقافة الجديدة ، ص ١٦، ١٧ .

في القطاع الريفي الذي كان يعاني من عملية نهب وابتزاز مستمرة تحدث عنها " الجبرتي " في أكثر من موضع (١) .

يفسر " جبرار " (أحد علماء الحملة الفرنسية) أسباب تدهور الأوضاع في الريف خلال تلك الفترة بوسائل الممالك في الحصول على الفائض والتي كانت تعتمد على القوة وبالتالي جعلتهم لا يهتمون بتحسين الأرض أو النهوض بالزراعة .

غير أن " جبرار " يؤكد أنه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تحسنت أوضاع المنطقة الواقعة بين أسبوط وقنا حيث حدثت عناية كبيرة بصيانة الترع والجسور ويرجع ذلك إلى ضعف قبضة الممالك خلال تلك الفترة على هذه الأقاليم وإلى الإصلاحات التي نفذها شيخ العرب همام الذي حكم الصعيد خلال الفترة ما بين عامي ١٧٦٥ - ١٧٦٩ . ثم المنطقة ما لبثت أن أصبحت مسرحا للصراعات والقتال بين الممالك الفارين من سلطة القاهرة بعد القضاء على حركة همام . ونتيجة لتلك عادت هذه المنطقة لتصبح في حالة من الضنك (٢) .

وقد أفاضت المصادر في تصوير مدى البؤس الذي وصل إليه الفلاحون خلال تلك الفترة فالرحالة الفرنسي " فولتي " الذي زار مصر خلال عامي ١٧٨٣ - ١٧٨٤ ، كتب عنها يقول في مثل هذا القطر (يقصد مصر) كل شيء يذهب إلى الحكومة حيث لا يحصل للزراع على نتائج عملهم . ويعمل الفلاحون تحت ظروف من القهر والاجبار فلين الناتج الزراعي يكون ضعيفا .

تلك هي حالة مصر خلال تلك الفترة فالجزء الأكبر من الأرض الزراعية في أيدي الممالك ، والفلاحون مجرد آلات مأجورة لا يترك لهم ما يكفي استمرار حياتهم . فالأرز والقمح يذهب إلى موائد سادتهم ولا يترك لهم إلا محصول الذرة وهو طعامهم طول العام

(١) عجائب الأثار ، ج٢ ، ص ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) جبرار ، وصف مصر ، المجلد الرابع ، ج١ من ترجمة زهير الشايب مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٣٧ .

ويعيش الفلاحون تحت ظروف من القلق والخوف المستمر من النهب من قبل البدو والابتزاز من قبل المماليك (١) .

وكان من الطبيعي أن يقاوم الفلاحون تلك الأوضاع الجائرة بشتى الوسائل واتخذت مقاومتهم مظهرين :

- الهرب من الأرض وهي ظاهرة قديمة في التاريخ المصري لكنها أصبحت ملحوظة في العصر العثماني . فقانون نامة مصر الذى صدر فى عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) أشار إلى ظاهرة هرب الفلاحين من الأرض ووضع الضوابط الخاصة بمواجهتها ويستفاد مما جاء بهذا القانون أن بعض القرى قد هجرها الفلاحون بشكل كامل ، إن خراب تلك القرى يرجع إلى ظلم عمال الحكومة أو تعدى الكشاف (الحكام المحليين) أو ظلم شيوخ العرب أو هجمات البدو (٢) .

وخلال زيارته لسوريا لاحظ الرحالة " فولتى " أن الفلاحين المصريين المهاجرين إلى سوريا ينتشرون حتى حلب وديار بكر شمالا بسبب الاعباء المالية والمظالم الواقعة عليهم حتى أفقرت مناطق واسعة من أهلها مثل إقليم الفيوم الذى اشتهرت أرضه بخصوبتها ووفرة خيراتها وتشير سجلات الضرائب وحيازة الأرض (الترابيع) التى عملت زمن الحملة الفرنسية (١٢١٥هـ) ١٨٠٠م إلى أن بعض القرى فى صعيد مصر قد خربت وجلا عنها أهلها مثل قرية ناقوسة بمصر الوسطى التى تقول عنها هذه النفاثر انها كانت عام ١٢١٢هـ (١٧٩٨م) عند وصول الفرنسيين خرابا ولم تحصل منها أية أموال (٣) .

- أما المظهر الآخر لمقاومة الفلاحين فهو الانتفاض ضد السلطة بشكل مباشر والصدام معها أو من خلال حركات مناهضة لهذه السلطة مثل حركة شيخ العرب همام . التى لاقت تأييدا وتجاوبا واسعا من الفلاحين فى صعيد مصر . واذا كانت حركة همام قد انهارت بسبب اصطدامها بطموحات على بك الكبير الذى كان يطمح فى قيام دولة مركزية إلا أن أصداء

(١) Volney , Travels through Syria and Egypt in the Years 1783 - 1785 , London 1972 .

V.I, PP. 1988- 1990 . Tranlated .

(٢) قانون نامة مصر ، ترجمه وقدم له وعلق عليه أحمد قسولا مؤنس (دكتور) ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٧٠-٧٢ .

(٣) دار الوثائق دفر تاريخ ولاية الأشمونين سنة ١٢١٥هـ رقم ١٦٨٨ .

هذه الحركة التي كانت تهدف إلى ضرب سلطة المماليك في مصر ظلت في وجدان السكان في صعيد مصر . فرفاعة رافع الطهطاوى بعد أكثر من ستين عاما يحاول أن يقرب فكرة الجمهورية للمصريين عندما يقارنها بنظام الحكم الذى أقامه شيخ العرب همام فى صعيد مصر حيث يطلق عليه تعبير جمهورية التزامية وذلك فى كتابه المعروف تخليص الإبريز (١) .

وإلى عهد قريب كانت القرى فى جنوب أسيوط لا تزال تحتفظ بأغنية كانت ترددها الأمهات لأطفالهن قبل النوم ربما كانت تشير إلى حركة شيخ العرب همام ويقول مطلعها :
يا ولد يولد حسن طبلك ضرب والمدينة ترعزعت والفز هجمت عابلد (٢) .
وقد اعتب انهيار حركة همام (١٧٦٩) حالة من الفوضى وعدم الاستقرار فى الصعيد استمرت حتى مجيء الحملة الفرنسية (١٧٩٨) .

ففى رحلته إلى صعيد مصر عام ١٧٧٨ وصف الرحالة الفرنسى " سونيني " حالة الاضطراب وعدم الاستقرار التى شاهدها فى المنطقة الواقعة بين جرجا وأسيوط بقوله إن المنطقة كانت بعيدة كل البعد عن الاستقرار . فالفلاحون كانوا فى تلك المناطق فى حالة ثورة بعد أن رفضوا دفع الضرائب المطلوبة . كما انضم إليهم بعض العرب المستقرين واستطاعوا أن يلحقوا هزيمة كبيرة بقوات الكشاف المحليين الذين حاولوا توحيد قوتهم لمواجهة العناصر الثائرة . ونتيجة لذلك تردت المنطقة فى حالة من الفوضى والاضطراب فالحقول قد شاع فيها الدمار بعد أن هجرها الفلاحون ولجأوا إلى حمل السلاح وأصبحت الطرق الرئيسية تعج بالعصابات وقطاع الطرق . ويقول " سونيني " أن الفترة التى قضاها فى طهطا لم يكن يستطيع مغادرة المدينة بسبب حالة الهياج فى مناطق الريف المجاورة وإنه اضطر إلى ركوب إحدى سفن نقل غلال الميرى إلى العاصمة بسبب تلك الاضطرابات (٣) .

نصل من هذا إلى أن القرية المصرية وخاصة فى صعيد مصر كانت عند وصول الفرنسيين مشتبكة فى صراع عنيف مع سلطات المماليك وأتباعهم فى الأقاليم . ومع عناصر

(١) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر اسماعيل ، الخلفية التاريخية والفكر السياسى والاجتماعى ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٣٧-٤٣ .

(٢) أغنية شعبية من الغنايم فى نهاية الأربعينات .

(٣) . Sonini , Travels in Upper and Lower Egypt , Hans 1979 Translated PP. 674 , 675 .

البدو غير المستقرين ومع قطاع الطرق المحترفين وبعض هذه الأخطار ترجع إلى أوائل العصر العثماني حيث أشار إليها قانون نامة مصر الذي أشرنا إليه (١) . وأكدها مرة أخرى الرحالة " سونيني " عند حديثه عن القرى في المنطقة المجاورة لدمهور التي رآها في حالة قلق مستمر بسبب الخوف من هجمات الكشاف والبدو (٢) .

هذه الأخطار أثرت في تخطيط القرية المصرية بشكل عام وفي طرز العمارة في ريف مصر حيث كانت مباني القرى في تلك الفترة تشبه الفلاح وكان الفلاحون بها على استعداد لمواجهة أى هجوم مفاجئ كما تقول المصادر المعاصرة (٣) . وهي حقيقة أشار إليها الرحالة الانجليزي " بايلي سان جون " الذي زار مصر في أوائل عصر عباس حيث يذكر : أن القرية كانت تحصن نفسها في الماضي ضد هجمات أعدائها بطريقة بدائية فكانت منازلها تبنى وظهرها للخارج في شكل دائري مثل قطيع الخيل الذي يتعرض لهجوم قطيع من الذئاب أما منافذ القرية للخارج فكانت تحكمها بوابات تتكون من كتل ضخمة من الخشب (٤) . كما كانت بعض القرى في صعيد مصر يحيطها سور تتخلله فتحات من أعلى لاطلاق النار عند الضرورة مثل قرية بنجا (جرجا) التي أشار " علي مبارك " إلى أنه كان يحيط بها سور من الخارج به فتحات من أعلى كانت تستخدم للدفاع عنها (٥) .

وعلى هذا فالقرية كانت قد تمرست على الأخطار عندما حدث الغزو الفرنسي لمصر حيث كانت القرية مشتبكة في صراع مع سلطات المماليك . وكذلك مع عناصر البدو غير المستقرين وعناصر التهديد الأخرى التي يمكن أن تأتي من عصابات اللصوص المحترفين . وكان من المنطقي أن تتجه تلك المقاومة إلى الفرنسيين الذين احتلوا البلاد ويحاولون تأسيس سلطة لهم في الريف . وقد أعاد الغزو الفرنسي إلى الأذهان ذكريات الحروب الصليبية . ومن ثم أصبح الجهاد واجبا مقدسا . فضلا عن أن الفرنسيين لم يكونوا أقل قسوة من المماليك في وسائل جمع الضرائب بل زادوا في قسوتهم عن المماليك كما تؤكد المصادر الفرنسية نفسها

(١) قانون نامة مصر ، ص ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ .

(٢) Sonini , op - cit , P. 292 .

(٣) Reynier , J . L . T . , State of Egypt after the battle of Heliopolis , Translated ,

London , 1802 . P. 66 .

(٤) Bayle st J , Village life in Egypt , New-York 1973 V . I , P. 43 .

(٥) الخطط التوفيقية ، ج ٩ ، ص ٨٤ .

وكما يؤكد " الجبرتي " ذلك (١) . وقد اضاف الحصار الانجليزي للشواطىء المصرية فى أعقاب معركة أبى قير البحرية أعباء اقتصادية جديدة على الفلاحين والمزارعين من زراع الأرز فى شمال الدلتا (٢) .

هذه العوامل مجتمعة ضاعفت من مقاومة الريف المصرى عموما للحملة الفرنسية .

المواجهة فى الصعيد مصر :

من البداية كان " بونابرت " يرى أن بقاء الصعيد بعيدا عن السلطة الفرنسية يهدد الوجود الفرنسى فى القاهرة نفسها . كما يحرم القاهرة من مواردها من الغلال التى كانت تحصل عليها قبل وصول الفرنسيين إليها وعلى ذلك فقد كان تأسيس سلطة للفرنسيين فى صعيد مصر أمرا حيويا بالنسبة للفرنسيين (٣) . وعلى ذلك فقد حاول الفرنسيون الوصول إلى نوع من التفاهم مع المماليك الذين فروا إلى الصعيد بقيادة مراد بك فى أعقاب معركة إمبابية غير أن مشروع المعاهدة قد فشل حيث رفض مراد بك أن تحدد إقامته مع قواته فى المنطقة الواقعة إلى ما وراء حدود إقليم جرجا كما رفض أن يحكم الإقليم الواقع إلى الجنوب تحت السيادة الفرنسية . وكان ذلك إيذانا ببداية حملة "ديزيه" على الصعيد ، وقد تكونت الحملة من حوالى خمسة آلاف رجل من المشاة والفرسان والمنفعية والمهندسين مع السفن الحربية اللازمة (٤) . وقد بدأت الحملة تحركها جنوبا من مصر القديمة فى أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ وفى ٣١ أغسطس احتلت مدينة بنى سويف ثم استولت على البهنسا بعد أن انسحب مراد بك منها ثم واصلت قوات الحملة اندفاعها جنوبا إلى أسيوط فى محاولة للاستيلاء على أسطول مراد لكن "ديزيه" قد فشل فى ذلك لانسحاب أسطول مراد جنوبا إلى جرجا وبالتالي قرر "ديزيه" الرجوع شمالا للاستيلاء على الفيوم حيث دارت معركة وهى معركة من أشد معارك الحملة هولا حيث خاضها الأهالى من المشاة والفرسان إلى جانب قوات المماليك يحدوهم الأمل فى سحق قوات "ديزيه" وبالفعل كانت هذه الجموع أن تسحق قوات "ديزيه"

(١) وصف مصر المجلد الثالث من ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٧٩ .

(٢) فاطمة الحمراوى ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، رسالة ماجستير غير منشورة مقبلة لكلية الآداب - جامعة القاهرة .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص ٣٦٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

لولا تفوق المدفعية الفرنسية عليهم . وقد بلغت خسائر الفرنسيين حوالى ٥٠٠ رجل من بين قتيل وجريح بينما قدرت خسائر المماليك بأربعمائة قتيل (١) .

وقد حددت معركة " سب منت " طبيعة الصراع فى الفترة التالية بين قوات الغزو الفرنسى وبين قوات المماليك وكذلك أهالى القرى الذين أصبحوا الطرف الأصيل فى المعارك القادمة . فقد فقد المماليك الأمل فى الانتصار على القوات الفرنسية فى معارك مواجهة وبالتالى اعتمدوا على أساليب الهجمات الخاطفة وأساليب الكر والفر وأصبحت معارك القرى تجهد الفرنسيين وتستنفذ قوتهم . وقد وقع العبء الأكبر فى هذه المعارك على الفلاحين وسكان القرى . بينما تراجع دور المماليك ليصبح قاصرا على التحريض والمناوشات الأولى فى المعارك ثم الانسحاب فى الوقت المناسب ليحافظوا على قواتهم ، حدث ذلك فى أكثر من معركة (٢) .

وقد أجهدت معارك القرى هذه ، القوات الفرنسية لدرجة تشبيهها المصادر الفرنسية بحرب " انطونيو " مع البارثينيين وهى حرب أرهقت القوات الرومانية فى ذلك الوقت (٣) . وخلال معارك القرى اتبع الفلاحون مع الفرنسيين ما يمكن أن نسميه بسياسة الأرض المحروقة وهى سياسة تقوم على حرمان الفرنسيين من الموارد المتاحة فى القرى . وتقرر المصادر الفرنسية أن القرى التى كان يجتازها الفرنسيون كانوا يجدونها خالية من أى موارد يمكن أن يستفيد منها الجيش الفرنسى (٤) .

وفى المقابل كان الفلاحون عند عودتهم لقراهم لا يجدون بها سوى الطين الذى بنيت به حيطان منازلهم فالأبواب وسقوف المنازل والمحاريث وأتوات المنازل كانت تستعمل لطفى طعام قوات الغزو كما يقرر " فيغان دينون " (٥) .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ - ٣٦٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٧ ، ٤٠٥ .

(٣) Denon , op - cit , P. 240 .

- حول حرب "انطونيو" فى بارثيا انظر :

عبد اللطيف أحمد على (دكتور) ، التاريخ الرومانى ، عصر الثورة ، النهضة العربية

القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٣٥٥

(٤) هيرولد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

(٥) Denon , op - cit , P. 359 .

- أيضا هيرولد ، المرجع السابق ، ص ٣٣١ .

لقد كانت عمليات اخضاع القرى مقرونة بنهبها . وهناك أدلة متعددة على ذلك فعقب استيلائه على الفيوم شرع " ديزيه " فى تنظيم الادارة فى الاقليم وجمع الخيول اللازمة لقوات الحملة وتحصيل الضرائب ومصادرة الغلال . ولما كانت معظم القرى تمتنع عن تقديم ما يطلب منها فقد عزم " ديزيه " على تجريد قوة عسكرية على هذه القرى لاختضاعها وارغام الفلاحين على تسليم ما يفرض عليهم . فتحركت فى ٦ نوفمبر سنة ١٧٩٨ كتيبة فرنسية لاختضاع القرى النائرة غير أن هذه القوة لقيت مقاومة عنيفة من قرية سرسنا . وعندما تمكن الفرنسيون من اخضاعها قاموا بنهبها واضرام النار فيها (١) .

إن عمليات نهب القرى والفضائع التى ارتكبتها الفرنسيون زادت من اصرار الفلاحين على المقاومة ولم يتركوا وسيلة إلا إتبعوها ونسوا مظالم حكامهم من المماليك حيث وقف الفلاحون فى صعيد مصر إلى جانب جيش مراد (٢) .

ولم يكن أسلوب الفرنسيين فى النهب قاصرا على القرى بل إمتد إلى الأسواق وهو ما كان يفعله المماليك من قبل ففى أوائل أكتوبر نزلت فصيلة من القوات الفرنسية إلى سوق المنيا وبعد أن حصلوا على مؤنتهم من السوق رفضوا دفع ثمن ما حصلوا عليه فنار عليهم الفلاحون الذين كانوا فى السوق يسوقون محاصيلهم وقتلوا منهم خمسة جنود كما جرحوا ثمانية (٣) . بل أن نهب القرى كان يصحبه عملية إذلال للفلاحين حين كان الجند يحاولون الاعتداء على أعراض النساء ، الأمر الذى كان يقجر فى نفوس الأهالى براكين الغضب ضد الفرنسيين ولا عجب فإن الصعيد كله قد اشتعل حريقا ضد الفرنسيين الأمر الذى لم يستطع معه الفرنسيون تأسيس سلطة لهم فى الريف . وهو ما تؤكد المصادر الفرنسية نفسها فالجنرال " ديزيه " يقرر فى رسالة إلى " بوناپرت " فى ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ أنه رغم المجهود والتضحيات التى قدمتها القوات الفرنسية فإنهم ليسوا سادة البلاد وحسب قوله لأننا إذا أخذنا بلدة لحظة من الجنود عادت إلى حالتها القديمة (٤) . لقد كان الصراع على امتداد الريف فى صعيد مصر هائلا وضاريا للأسباب التى أشرنا إليها وضاعف من ضراوته أن كثيرا من القرى كان عليها أن تدافع عن نفسها فى نفس الوقت ضد تجاوزات المماليك حين

(١) عبد الرحمن الرفعى ، المرجع السابق ، ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٦٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٩٧ .

كانت تتعرض للنهب من الفرنسيين والمماليك في وقت واحد . حيث تشير المصادر إلى أن أهالي قرية " صنوب " قد اشتبكوا مع قوات مراد في معركة ضارية عندما حاول المماليك نهب القرية ، وقتل في هذه المعركة ثمانين شخصا من الفلاحين كما قتل من قوات مراد ثمانية من بينهم أمين خزانه مراد وتمكن المماليك من نهب القرية بعدها (١) . على ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نعرض لبعض معارك القرى ومنها المعركة التي وقعت بين قرية الغنايم والقوات الفرنسية حيث واجهت القرية بمفردها قوات الغزو في زحفها جنوب أسيوط . فقد انسحب المماليك من أسيوط بعد أن اغرقوا سفينة مسلحة من أسطولهم وتركوا ست سفن أعجلهم عنها سرعة زحف " ديزيه " ، فلم يتمكنوا من أخذها أو حتى إغراقها . وعلى ذلك فقد استولى الفرنسيون عليها بما فيها من أقوات ونخائر . وبعد أن استقر الجيش الفرنسي بضعة أيام في مدينة أسيوط شرع في فجر يوم ٢٦ ديسمبر في الزحف جنوبا منقسما إلى فرقتين فرقة الجنرال " فريان " وهذه سارت مع خط التقاء الرمل بالطين . والأخرى كان معظمها من الفرسان . وهذه أوغلت في السهل وكان معها " فيفان دينون " وبعد مسيرة ثلاثة عشر ساعة التقت الفرقتان على مشارف قرية الغنايم مع حلول الظلام وفي محاولة احتلال القرية اشتبك الفرنسيون مع أهلها في معركة قتل فيها بعض الجنود الفرنسيين وحسب رواية الجنرال " بليار " فإن قوة أخرى أرسلت لإعادة النظام للقرية ومن ثم اشتبك معها الأهالي في معركة أخرى قتل فيها أحد الأهالي وجرح اثنان من الجنود الفرنسيين وخلال المعركة نهب الجنود القرية نهبا تاما (٢) . ويفهم من رواية " دينون " أن فرقة الجنرال " فريان " هي التي بدأت الهجوم على القرية مستفيدة من الظلام الذي خيم على المكان ويزعم أن التعزيزات التي أرسلت للقرية كانت تحاول وقف عمليات النهب والاعتداء على السكان وأنه بسبب فقدان التفاهم بين الطرفين حدثت المعركة الثانية وأن هذه التعزيزات اضطرت للنفاع عن نفسها بعد أن هاجمها الأهالي لأن هذه القوة كانت تعوذها الوسيلة في شرح أهدافها للسكان (٣) .

أما معركة " نجع البارود " فتعتبر واحدة من أكبر الهزائم التي لحقت بالفرنسيين في تاريخ الحملة ككل حيث هاجم الأهالي سفن أسطول " ديزيه " التي كانت تعزز زحف القوات البرية وتتكون من ١٢ سفينة تنقلهما السفينة الحربية " ايتاليا " وفي هذه المعركة تمكن الأهالي من الاستيلاء على بعض سفن هذا الأسطول بما عليها من أسلحة ونخائر وفي محاولة

(١) هارولد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٢) الراقي ، المرجع السابق ، ص ٣٧٥ .

(٣) Denon , op - cit , P. 11 .

الاستيلاء على سفينة القيادة " ايتاليا " اشتبك الأهالى فى معركة مع القوة الفرنسية التى على ظهرها مما جعل قائدها يشعل النار فيها فانفجر مستودع البارود بها فدمرها تماما وحدث انفجار السفينة خسارة كبيرة بين الأهالى وبين القوات الفرنسية حيث بلغ عدد قتلاهم من الجنود والبحارة حوالى خمسمائة قتيل وهى أكبر خسارة أصيب بها الجيش الفرنسى خلال زحفه على الصعيد (١) . أما معركة أبنوب فقد استمرت ثلاثة أيام متصلة (٨ - ١٠ مارس ١٧٩٩) وفى هذه المعركة حاول الأهالى الاستفادة من الأسلحة التى حصلوا عليها من الأسطول الفرنسى والتى اخذت تقوى مركزهم فى المواجهة مع الفرنسيين . فعقب معركة نجح البارود واصل الأهالى انسحابهم تحت ضغط القوات الفرنسية وهم يدافعون عن كل قرية فى تراجعهم فلما وصلوا إلى أبنوب تحصنوا بها وأدرك " بليار " قائد القوة الفرنسية المتوغلة جنوبا أن موقفه أصبح محفوفا بالمخاطر طالما ظلت الأسلحة الفرنسية فى أيدي المصريين ومن ثم وضع خطته على أساس استرجاع هذه المدافع عند بدء المعركة . وبالفعل نجح فى ذلك ، وتحول القتال فى هذه المعركة إلى قتال متلاحم فى بيوت القرية وطرقاتها ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب على مقاومة الأهالى إلا بعد أن اضرموا النار فى القرية التى تحولت إلى شعلة من الجحيم . بالرغم من ذلك استمر الأهالى فى المقاومة بعد أن تحصنوا فى قصر كان فى السابق مقرا لكشاف المماليك وفى مسجد مجاور له . واشتد القتال حول المنزل والمسجد واستمرت المعركة حتى حل الليل وتكبد الفرنسيون خسائر خلال القتال . وقد قام الفرنسيون بمحاصرة المنزل خلال الليل . وعندما استؤنف القتال فى اليوم التالى اعاد الفرنسيون ضرب القصر بالمدافع . وحاول الأهالى الذين تجمعوا من القرى المجاورة بمساعدة المماليك اختراق الحصار لكن الفرنسيين ردوهم على أعقابهم كما استطاع الفرنسيون الوصول إلى ساحة القصر وأضرموا فيها النار ليرغموا المتحصنين بداخله على التسليم لكنهم استمروا فى القتال حتى أقبل الليل وكان قد قتل منهم عدد كبير وتمكن بعضهم من الخروج من القصر تحت جنح الظلام وعندما استؤنف القتال فى اليوم الثالث كان الباقون قد أصبحوا فى حالة إعياء وأثقلتهم الجراح ورغم ذلك استمروا فى المقاومة حتى قتل معظمهم ويقول " دينون " تعليقا على هذه المعركة والمعارك التى سبقتها . إن العدو لم يكن يعبأ بنيران مدافع الميدان التى نملكها وكان اندفاعهم الشجاع يعرض حاجتهم إلى السلاح ... ويقول أيضا وقد وجدنا مقاومة أشد فى القرى حيث كان العدو يتفوق علينا فى العدد ويملك بعض الأسلحة النارية ويتمتع بحماية حوائط القرى ويقول أن القوات الفرنسية استطاعت اقتحام القلعة مرتين

(١) الرافعى ، المرجع السابق ، ص ٣٩٢ .

وفى كل مرة كانت ترغم على الجلاء عنها وفى الساعات الاثنى عشر الأخيرة من الحصار كان المحاصرون بلا ماء وجفت حلوقهم وأصبح وضعهم رهيبا وبعد ساعة من طلوع النهار كان هناك ثلاثون من أفضل محاربيهم بشقون طريقهم خلال قواتنا المتقدمة ومع طلوع النهار دخلت قواتنا القلعة خلال الثغرات التى أحدثتها المنفعية . ويستطرد " دينون " فيقول إن القوات الفرنسية قد وضعت السيف فى أولئك الذين ظلوا نصف أحياء بعد أن شوتهم النيران وظلوا يقاومون رغم كل الظروف (١) .

وقد شهد شهر أبريل سلسلة من المعارك بين أهالى المنطقة الواقعة بين جرجا وأسيوط كان أبرزها معركة بني عدي وكانت بني عدي قد أصبحت مركزا للعناصر المقاومة بعد أن استطاع الفرنسيون التغلب على عناصر الثورة فى برديس (٦ أبريل) وجرجا (٧ أبريل) وجهينة (١٠ أبريل) وكان أهالى بني عدي يهاجمون فى جماعات السفن الفرنسية فى النيل . وقد بدأت المعركة عندما اشتبكت القوات الفرنسية مع بعض الأهالى المتحصنين فى غابة قريبة من البلدة . ثم شرع الفرنسيون فى مهاجمة بني عدي وفى الهجوم الأول قتل " بينون " قائد القوة الفرنسية ثم ما لبث أن تحول القتال إلى قتال متلاحم فى شوارع البلدة ومنازلها واستمر القتال إلى الليل . وكعادتهم عندما يعجز الفرنسيون عن قهر مقاومة القرى أشعل الفرنسيون النار فى البلدة وبهذه الوسيلة تغلب الفرنسيون على مقاومة بني عدي واحتلها الفرنسيون . وقدرت المصادر الفرنسية الذين قتلوا فى هذه المعركة من جانب الأهالى بعدد يتراوح ما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ قتل معظمهم من ضحايا الحريق وبدعوى التفتيش على عناصر المقاومة فى المنازل والبيوت نهب الفرنسيون الودائع والأموال المحفوظة لدى الأهالى .

وكانت بني عدي تتمتع بأهمية خاصة فهى تقع على طريق الواحات وعلى نهاية طريق درب الأربعين الذى يربط مصر بغرب السودان وتجارة وسط أفريقيا وكان ذلك سببا من أسباب غنى أهلها حيث كانت تعمل كمركز توزيع لتجارة تلك المنطقة . وكثيرا ما كان أهلها يقاومون ظلم المماليك وتعدياتهم . ويفهم مما كتبه " الجبرتي " أن أهالى بني عدي كانوا موضع ثقة أهالى المناطق المجاورة وأعيانها وكانوا يضعون عند أهلها ودائعهم وربما كان ذلك نوعا من الائتمان يمارسه أهالى البلدة قبل أن تعرف مصر نظام المصارف الحديثة . أو

(١) وصف دينون هذه المعركة تفصيلا فى ٢٣ صفحة : Denon, op - cit, PP. 202 - 216

أيضا عبد الرحمن الشرقاوى ، الجبرتي وكفاح الشعب ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٠٢ .

أن ذلك الوضع كان مؤقتا بسبب القلاقل والاضطرابات التي صاحبت الغزو الفرنسي للأقاليم واعتقاد الأهالي المجاورين أنه يصعب على الفرنسيين إخضاع البلدة كما يفهم من رواية " الجبرتي " . وحسب هذه الرواية فإن الفرنسيين بدأوا هجومهم باحتلال تل مجاور للقرية ومنه أمطروا القرية بقنابل مدافعهم التي تسببت في اشتعال أجران القرية ثم أعقب ذلك الهجوم على القرية حيث يقول " الجبرتي " ضمن أحداث عام ١٢١٣هـ " ... وفيها حضر إلى مصر الأكثر من عسكر الفرنسيين والذين كانوا بالجهة القبليّة وضربوا في حال رجوعهم بنى عدى من بلاد الصعيد مشهورة وكانوا أهلها ممتنعين عليهم في دفع المال والكف ويرون في أنفسهم الكثرة والقوة والمنعة فخرجوا عليهم وقتلوه وأحرقوا جرونها ثم كبسوا عليهم وأسرفوا في قتلهم ونهبهم وأخذوا أشياء كثيرة وأموالا عظيمة وودائع جسيمة للغز وغيرهم من مساتير أهل البلاد القبليّة لظن منعهم " (١) .

من هذا العرض يمكن أن نستخلص النتائج الآتية :

١- إن القرية المصرية كانت قد تدرست على الأخطار قبل الغزو الفرنسي وبالتالي فإن أهلها كانوا على استعداد للصدام في أي وقت كما أن نمط العمران الذي فرضته الظروف على القرية كفّل لها قدرا من الصمود في وجه هجمات الفرنسيين كما حدث في معركة شباس عمير وكفرها وكذلك في معركة أبنوب .

٢- إن سقوط السلطة العثمانية جعل الفلاحين وأهالي القرى أمام مسؤوليتهم في الدفاع عن أنفسهم ضد الغزو الفرنسي . خصوصا وأن الفرنسيين قد مارسوا كل عمليات النهب والابتزاز التي كان يمارسها المماليك وبنفس أسلوبهم العنيف وزاد الفرنسيون على ذلك محاولاتهم انتهاك الأعراض وكل ما يؤدي إلى استغزاز الفلاحين .

٣- إن الفلاحين وأهالي القرى نظروا إلى هذه الحرب على أنها حرب مقدسة يتضح ذلك من انضمام عناصر من المغاربة والحجازيين للمقاومة تحت قيادة الجيلاني الذي زعم البعض أنه المهدي المنتظر ونسجت الأساطير حول بطولاته . وقد لعب هؤلاء دورا في معركة أبنوب . وكذلك بطولة الطفل التي أشرنا إليها والحوار الذي دار بينه وبين ديزيه خير دليل على ذلك .

(١) عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٥٨ .

٤- إن هروب بعض عناصر المماليك إلى صعيد مصر وتزعمهم للمقاومة قد شجع الفلاحين على الاصطدام بالفرنسيين وجعل الحرب أقرب إلى حرب العصابات الحديثة وهو أسلوب أرق الفرنسيين وأقضى مضاجعهم .

٥- نتج عن ذلك أن الفرنسيين لم يستطيعوا تأسيس سلطة حقيقية لهم في صعيد مصر وفي الريف خاصة على امتداد صراع استمر من أغسطس ١٧٩٨ وحتى أبريل ١٨٠٠ عندما وقعوا اتفاقية مع مراد .

٦- إن القوة الفرنسية قد تآكلت من جراء الصدام المستمر في ريف مصر وأمنها وشمالها وجنوبها . فلما جاءت الحملة العثمانية الانجليزية في مارس ١٨٠١ لم يكسب الجيش الفرنسي في مواجهتها معركة واحدة واضطر الفرنسيون للجلء عن مصر .